

غربة الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. سلام عليكم أيها الإخوة ورحمة الله وبركاته، وأسعد الله أوقاتكم بكل خير، وحياكم الله بهذا المكان المبارك، وفي هذا الاجتماع الطيب، وحيأ الله هذه الوجوه الطيبة، التي جمعها التحابُّ في ذات الله، وجمعها التآلف الذي ربط الله به بين المسلمين، الأخوة الإيمانية الدينية { قَاصِبِحُنْمُ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا } . أيها الإخوة! نحن في زمان الغربة، تحقق ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: { بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ؛ فطوبى للغرباء } وسئل عن الغرباء فقال: { هم النزاع من القبائل } أو { الذين يصلحون عند فساد الناس } أو { الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنتي } أو { الذين يفرون بدينهم من الفتن } . إنما النزاع من القبائل أي: أن من كل قبيلة فرداً أو فردين، وبقيّة القبيلة ليسوا من هؤلاء الغرباء، وسموا غرباء؛ لأن أحدهم غريب بين الناس، يرى كأنه ليس من الناس، الناس في واد وهو في واد، جمهور الناس وأكثرينهم متوسعون في أمور دنياهم، ومنهمكون في شهواتهم وفي شغلهم ولهوهم. والصالح منهم والمتمسك يرى مثل الشعرة في جلد البعير، الأكثرية من الناس هم الذين قد تغيروا عن ما كان عليه أسلافهم وأباؤهم وأجدادهم إلا من شاء الله. ومعنى قوله: { وسيعود غريباً } أنه سيصبح الإسلام غريباً، وسيصبح أهله غرباء. وقد تحققت هذه الغربة منذ زمان؛ قد روي عن الإمام أحمد -رحمه الله- أنه قال: ما أغرب السنة! وأغرب منها من يعرفها! فهذا في زمن الإمام أحمد الذي هو في أحد القرون الثلاثة المفضلة، فكيف بما بعده؟ وقد ذكروا أن بعض التابعين دخلوا على أنس -رضي الله عنه- واشتكوا إليه ما يلحقون من الحجاج بن يوسف من الأذى، فقال: { اصبروا فإنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم، سمعته من النبي -صلى الله عليه وسلم- } . وقد تحكّم الغربة وتشدت في زمان، ثم تنحل بإذن الله ويتسع الأمر، ولكن الغالب والأكثر هو استحكامها إلا من شاء الله؛ ففي زمن أول القرن الرابع عشر الماضي حدث مثل هذه الغربة أو أشد؛ حيث ذكر الشيخ سليمان بن سحمان -رحمه الله- أنهم لما كانوا في ولاية آل رشيد منعوا من إظهار الخير، ومنعوا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأمر كل أحد منهم أن يقتصر على نفسه، وفي ذلك أنشأ قصيدة ميمية منشورة في ديوانه، وذكر فيها ما يلاقيه أهل ذلك الزمان من غربة الدين فيقول فيها: على الدين فليكن ذوو العلم والهدى فقد طمست أعلامه في المعالم وقد صار إقبال الورى واحتياهم على هذه الدنيا وجمع الدراهم يعادون فيها بل يوالون أهلها سواء لديهم ذو التقى والجرائم إذا انتقص الإنسان منها بما عسى ذخرا أتى بالعطائم وأبدى تعاجيباً من الحزن والأسى على قلة الأنصار من كل فاهم فأني على الدين الحنيفي والهدى وملة إبراهيم ذات الدعائم فليس عليها بعد أنتم معارفها من الناس من باك وآس ونادم وهكذا استمر فيها يذكر الغربة في ذلك الزمان، مع أنه فيه العلماء الكثير، وفيه العباد ولم تفش هذه المنكرات، ولم تظهر الخمر، ولم يظهر الفجور، ولم يحدث هذا الاختلاط، ولم يكتر الكفار، بل المسلمون عزيزون أقوياء، والموحدون مظهرون لدينهم، ولكن لما أنهم وجدوا هذا الذي فيه شيء من التحجر على الأخيار أن يظهروا خيرهم، عد ذلك من الغربة، الغربة الشديدة. وهكذا أيضاً في زمن الشيخ الحافظ الحكمي -رحمه الله- أظن أنه مات سنة سبع وسبعين من القرن الرابع عشر، أي بعد الثلاثين والألف ومع ذلك ظهرت في زمنه أيضاً الغربة، يعني: استغرب ما وقع فيه الناس في زمانه، وأين هو من زماننا! فله قصيدة دالية يقول فيها: ولا نصيح لعصري من يفوه بنا يناقض الشرائع إياه يعتمد ورتبوا هناك في الأفهام.. أين الطبيعة يا مخبول إذ وجدوا وما لزلاتهم ورد على صدري وما لمعتنيها في الفلاح يد قد يدخلون بها عاداتهم وسجايهم وحكم طواغيت لهم فرضوا محسنين لها كيما تروح على عمي البصائر ممن فاته الرشد من أجل ذلك قد أضحى زنادقة كثيرهم لسبيل الغي قد قصدوا يرون أن تضرب الأنثى بزيتها وبيعهما البضع تأجيل وتنتقد على صحائفهم يا صاح قد عكفوا ولو قرأت كتاب الله ما سجدوا وعن تدبر حكم الشرع قد ضُرفوا وفي المجالات كل الذوق قد وجدوا وللشوارب أعفوا واللحى تنفوا تشبها ومجارة وما أتادوا ثقافة ساء ما ألفوا حضارة من مروج هم لها قصدوا عصرية عصرت خبزا فحاصلها سم نقيع فيا إلى أن قال: يا غربة الدين والمستمسكون به كقباض الجمر صبرا وهو يتقد هكذا يمثلون معنى: يا غربة الدين والمستمسكون به كقباض الجمر صبرا وهو يتقد يشير بذلك إلى الحديث المشهور الذي فيه قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لما ذكر الزمان المستقبل زمان الغربة، فقال: { للعامل فيها أجر خمسين يعملون مثل عمله } وذكر سبب ذلك؛ وهو قلة الموافق وكثرة المخالف. وذكر أن أحدهم، المتمسك بالسنة كقباض الجمر { كالقباض على الجمر } هذا في زمان الغربة { المتمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر شهيد } . ففي هذه الأزمنة علينا أن نحسب حتى نكون من هؤلاء الذين وصفوا بأنهم الغرباء، الذين يصلحون عند فساد الناس، أو الذين يصلحون ما أفسد الناس من السنة، أو الذين يفرون بدينهم من الفتن.